مجلة العلوم الإنسانية والحضارة ـــ ISSN 2661-7307
المجلد 06 ـ العدد 02 ـ السنة 2024 ص 26 - 52 EISSN 2773-4048
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/730

مدينة يافا في كُتبِ الرحالة الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر

"The city of Jaffa in the books of European travelers during the nineteenth century"

ط.د ممدوح غالب أحمد بري[1]*
[1]جامعة النجاح الوطنية / نابلس – فلسطين
mb_a_1982@hotmail.com

أد. محمود يزبك[2]
[2] جامعة حيفا/ الناصرة

تاريخ الإرسال: 2024/05/04م تاريخ القبول: 2024/05/30 تاريخ: النشر: 2024/06/30

الملخص:

تَكثُر في كُتُبِ الرحالة الأوروبيين الانطباعات السلبية عن بلاد المشرق ومُدنها، بما فيها مدينة يافا في فلسطين، سيما تلك الانطباعات التي تَصف المشاهد التي يَراها الرَحالة من الوَهلَةِ الأولى، مثل مظاهِرِ المُدُنِ ومحيطها الاجتماعي والبيئي والقُرى والتجمعات البدوية من بعيد، وخلال لحظات دخولها الأولى، وقبل ولوج الرحالة إلى دهاليز الحياة العامةِ وتَشَعُباتها، وهذا نتاج منطلقات شخصية للرحالة أو نتاج تعقيدات خط سير الرحلة وانطباعاتِ مُرافِقيه.

عِندَ احتكاك وتفاعل الرحالة مع الحياة العامة كان يُلاحَظ تَتابُع الزَخم الكبير فيما يَكتُبُهُ الرحالة حول حيوية ونشاط المجتمع، وجمال أنساقِهِ العامة، من حيث الأسواق والفن المعماري والأطعمة بمختلف أنواعها، وملابس النساء، والمساجد والحياة في الكنائس والأديرة، وتنوع طبقات المجتمع والريف والبادية وما يُمَيز الرجال والنساء، وأشكالهم وطباعهم ومظهرهم الخارجي.

الكلمات المفتاحية: مدينة يافا، الرحالة الأجانب، القرن التاسع عشر، المظهر العام للمدينة.

* المؤلف المرسل:

Abstract:

There are many negative impressions in the books of European travelers about the countries of the Levant and its cities, including the city of Jaffa in Palestine, especially those impressions that describe the scenes that travelers see at first glance, such as the appearances of cities and their social and environmental surroundings, villages and Bedouin communities from afar, during the first moments of their entry, and before Travelers' access to the corridors of public life and its ramifications, This is the product of the traveler's personal starting points or the product of the complexities of the itinerary and the impressions of his companions. However, when interacting and interacting with public life, a great momentum was observed in what the travelers wrote about the vitality and activity of society, and the beauty of its general patterns, in terms of markets, architectural art, foods of various kinds, and women's clothing. And mosques and life in churches and monasteries, and the diversity of the classes of society, the countryside and the desert, and what distinguishes men and women, their shapes, character, and external appearance.

Keywords: *Jaffa city, foreign travelers, the nineteenth century, the general appearance of the city.*

تُقَدِم هذه الدراســة مادة علمية حول مظاهر الحياة العامة في يافا ومحيطها مِن خلال كُتب الرحالة الأوروبيين في القرن التاسـع عشـر الميلادي، وهي على شـكل إجاباتٍ يدور رحاها حول جُملَةٍ مِنَ الأسـئلة، التي نختزلها في الآتية:

1. هل هناك ما يُمَيز الرحالة عن بعضـهم مِن حيث الثقافة الشـخصـية والميول الديني والمَذهَبي والغاية مِنَ الرحلة والظرف السـياسـي الذي عايشـته مدينة يافا وأسـهمت في اختلاف وتعدد مُشـاهداتهم خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟
2. هَل أسـهمت تعقيدات الرحلة من حيث خط سـيرها والمناخ والتضـاريس والمُرافقين والأدلاء في تَنَوع وَثَراء مُشاهدات الرحالة الأوروبيين حول مدينة يافا خلال القرن التاسع عشر؟
3. كيف وصف الرحالة الأجانب مدينة يافا والبيئة المحيطة بها خلال القرن التاسع عشر الميلادي؟

مقدمة:

تستقي هذه الدراسة مصادرها من أربع رحلات لرحالة أجانب، تَعودُ أُصولهم إلى فرنسا وإنجلترا، كانوا قد زاروا مدينة يافا وفلسطين خلال القرن التاسع عشر، وتتوزع رحلتهم بين أعوام 1803-1859م، وهي فترة مهم في تاريخ فلسطين العثماني، نتاج ما شَهِدَتهُ من تحولات وأحداث سياسية مهمة، كان أبرزها أثار حملة نابليون بونابرت في مصر وبلاد الشام 1798-1801م، وتبعتها حملة فريزر البريطاني على مصر 1807م، وحملة حاكم مصر محمد علي باشا على بلاد الشام 1831-1840م، ودخول عهد التنظيمات والإصلاحات العثمانية 1839م و1853م، وعدة حروب داخلية، سيما بين العوائل الإقطاعية في جبل نابلس منذ انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام، وكذلك هزيمة الدولة العثمانية في القرم عام 1854م، وما ترتب على كل ذلك من تدخلات وامتيازات أجنبية، وتنامي دور القناصل الأجانب والإرساليات التبشيرية إلى فلسطين وسائر بلاد المشرق العربي والإسلامي.

اخترنا مِن بَينِ هَذه الرِحلات أَبرز تلك التي تزامنت مع هذه التحولات والأحداث الهامة التي تأثرت بها الحياة العامة في فلسطين، وكان أبرزها رحلة الرحالة فرانسوا رونيه دوشاتوبريان (ت1848م) من أبرز الرحالة، وهو فرنسي الجنسية، يعتبر مثقف كاثوليكي، تعتبر رحلته التي حملت عنوان **"الطريق من باريس إلى القدس عام 1803م"** احدى أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة.

يُعتَبَر الرَحالة الفرنسي ألفونس دي لامارتين (ت1869م)، وكتابه الذي حمل عنوان **"مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832م"**، حيث تجول في مدن فلسطين، ودخلها من الشمال قادماً من جبل لبنان، ويعتبر كتابه أحد أهم المصادر التي اعتَمَدتُ عليها، وتطغي على مشاهداته صبغة الكاثوليكي الفرنسي المتدين، المنفتح على الإسلام، لكنه لم يستطع أن يخفي أنه ابن تلك الحضارة الغربية.

أسهم غوسطاف فلوبير (ت1880م) الروائي الفرنسي الليبرالي في إثراء هذه الدراسة، من خلال كتابه **"رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج عام 1850م"**، نتاج شخصيته المتحررة اجتماعياً.

كان لرحلة الشابة الإنجليزية ماري إليزا روجرز (ت1910م) النصيب الأكبر من بين مصادر هذه الدراسة، لما تميزت فيه من تفصيل دقيق لأبسط تفاصيل الحياة الاجتماعية

في فلسطين، في كتابها الموسوم بعنوان **"الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م"**، حيثُ أسهمت رفقتها لشقيقها الدبلوماسي الإنجليزي الذي مَكَثَ في فلسطين طوال أكثر من أربع سنوات في إثراء تحليلاتها ومشاهداتها، نتاج شروحته وتوجيهاته، فأثرت في ثقافتها وعززت مِن قدرتها على فهم طبيعة المجتمع، والتعبير الجيد عن كل ما تشاهده.

1: مظهر يافا العام والمرفأ

1:1. سطوح منازلها ومآذنها وأسوارها وبساتينها

يقول - دوشاتوبريان – في رحلته عام 1803م كنت اقترب رويداً مِن مدينة يافا على ظهر السفينة اليونانية، قادماً من رودوس وقُبرُس، حتى أصبحت أنا ومَن معي نرى أضواء يافا من بعيد، وعلى قمة إحدى السلاسل الجبلية ما يشبه انعكاساً بعيداً لحريق، كانت تلك هي جبال يهوذا، وكأن يد المعونة قد وضعت هذا الفنار على قمة صهيون، لكي تُرشدنا إلى المدينة المقدسة، وكان مدرج جبال يهوذا يرتفع من بعيد، وعند أسفل الجبال ينحدر السهل الواسع حتى يصل إلى البحر، وكأننا بتنا نرى آثاراً للزراعة، وكان ثمةَ قصراً قوطياً مهدماً تعلوه منارة متداعية مهجورة، وعلى ساحلها الرملي كان العربي الذي يتجول على هذا الساحل من بعيد، يراقب المركب الذي يمر قادماً في الأُفُقِ، ولعله يرى احدى الجثث التي قد تطفوا على مقربة من الشط[1].

يصعب أن تجد في كتابات – دوشاتوبريان - ما يوحي بالموضوعية، بل تَعَمَد على أن يبتعد عن وصف كل شيء جميل وأنيق في يافا ومحيطها وغيرها من مدن وقرى فلسطين، حتى أن ذلك الفنار الموضوع على برج القصر القوطي، استبعد إمكانية ودور أهل يافا في وضعه، وقال أن ذلك نتاج يد المعونة، وحتى هذا القصر وصفه بالقوطي المُهَدَم، بحيث نسبه إلى طراز من الفن المعماري الذي ازدهر في الغرب والأندلس، وانتقل إلى المشرق العربي، رغم أنه سيصف يافا فيما بعد بالكثير من الألفاظ السلبية، إلا أنه اعترف بأنه وصل إليها في الليل، وكانت مُضاءة مِن بَعيد، لقد وصل إليها قادماً من فرنسا.

لم ينتظر لكي يستخدم الألفاظ العربية التي يطلقها أهالي البلاد على جبالهم الواقعة أقصى شرق يافا، تلك التي وصفها بجبل صهيون، وكذلك وصف تلك الجبال الواقعة في شمال شرق يافا، بجبال يهوذا، بينما كان بمقدوره أن يستبدلها في كتابه بتلك

الأسماء المحلية التي كانت تسمى بها جبال القدس، بما فيها الزيتون والمكبر والطور، أو سلسة جبال نابلس.

ووفق – دوشاتوبريان - لم تكن يافا تضم سوى كومة رديئة من المنازل المجتمعة على نحو دائري، وعلى شكل مُدرَجٍ ينحدر فوق إحدى السواحل المرتفعة، كما أن الكوارث العديدة التي عايشتها المدينة ضاعفت من وجود الأطلال فيها، وثمة جدار يؤدي طرفاه إلى البحر ويُغلفها من جهة اليابسة، فيضعها بمنأى عن يد المساعدة[2].

تزامنت رحلة عام 1803م مع مشاهد الدمار التي نتجت خلال حملة نابليون بونابرت على فلسطين في 7 مارس 1799م، وارتكابه مجزرة بشعة في يافا راح ضحيتها ثلاثة ألاف من سكانها ومن محيطها، وتدمير المدينة بالكامل، بعد تدمير ما تبقى من ذخيرته الثقيلة التي يصعب نقلها في قلب مدينة يافا، وتدمير العديد من القرى والبلدات الواقعة على طريقه عبر الساحل الممتد من عكا إلى يافا، وتبع ذلك بعد انسحاب نابليون ظهورت بعض الصراعات بين والي عكا وحاكم يافا، أسهمت كل هذه الأحداث في إضعاف اقتصادها، وتدمير مبانيها وخراب بساتينها ومحاصيلها، ونفوق حيواناتها.

بينما يزعم – دوشاتوبريان - أن دمار يافا هو نتاج صراع والي عكا أحمد باشا الجزار والصدر الأعظم العثماني، ويدعي أنه قد جرى أن قام الجزار بمحاصرة مدينة يافا بهدف القضاء على حكم أبو مارا صديق الصدر الأعظم، وحاصرها تسعة أشهر، وتمكن أبو مارا من الهرب عبر البحر، وبعد الجزار جاء خليفته الثاني سليمان باشا، فتلقى الأمر بالقبض على المتمرد، مما أدى إلى محاصرة يافا من جديد، وفر أبو مارا إلى والي دمشق محمد باشا آدم[3]، ولا يذكر ما قام به نابليون من أفعال شنيعة في يافا وأهلها.

ربما يقصد بأبو مارا حاكم يافا - أبو المرق - 1805-1819م، تلك الفترة التي استعادت فيها يافا حياتها، وعاد إليها الناس مجدداً بعد تأهيل وترميم وتعمير العديد من مرافقها ومبانيها ومؤسساتها، التي دمرها نابليون.

تصف - ماري روجرز- التي جاءت بعد – دوشاتوبريان - بنصف قرن تقريباً بيوت يافا بالجميلة، وفوق بعضها البعض، تربط بينها أدراج وتفصلها عن بعضها شجرة نخيل هنا أو مئذنة جامع هناك، وأعداد من الصبية يلعبون هنا وهناك تحت الأشجار[4]. لم تشعر – ماري- بالحرج حينما وصفت يافا كما هي بجمالها، رغم أن العام الذي زارت فيه يافا

1855م، تميز بحدوث أكبر هزيمة للدولة العثمانية في حرب القرم 1854-1856م، وكان لها انعكاساتها على المجتمع والاقتصاد العثماني، لقد كانت موضوعيتها نتاج طبيعة ثقافتها وتعليمها المُنفَتِح وأُسرَتِها وتَأَثُرِها بأَفكارِ شَقيقها الدبلوماسي.

وأكملت – ماري – وصفها ليافا، فقالت منازلها حجرية بيضاء، وتعلوا فوق بعضها البعض، وتنحدر نحو البحر، بينما كانت تقع إلى الشرق مرتفعات يهودا، وميناء يافا قديم ومرفئه دائم الازدحام، وفي المدينة أديرة كبيرة ومآذن شاهقة، وأشجار نخيل وحدائق غناء، وهي البقعة الوحيدة دائمة الحيوية تقريبا على ساحل فلسطين الرتيب من الكرمل إلى غزة[5]. لكن وعلى ما يبدو أن – ماري روجرز - قد أصدرت أحكامها المُتسرعة حول أن مجمل فلسطين تعاني من فقدان حيويتها، باستثناء يافا، قبل أن تدخل يافا أو تزور باقي مدن فلسطين، حيث يمكن أن تُغَيِر انطباعها بعد ذلك، وهذا ما حصل فعلاً، إلا أنه من الجميل أن تذكر الازدحام الذي تخلل مشهد يافا من الوهلة الأولى، وكانت تقصد به حركة الناس والزوار والتجارة، وتدخل إليها مختلف الأجناس.

2:1. مرفأ يافا:

يكمل – دوشاتوبريان – ويقول انطلق قارب صغير من المرفأ، وتقدم أمام سفينتنا اللاتينية، انتهزت وجوده لأرسل مع خادمي (جون) رسالة توصية، منحني إياها أمناء الأراضي المقدسة في إسطنبول، وكانت موجهة للآباء في يافا، وكنت قد كتبت كلمة إلى هؤلاء الآباء[6]. تبين لنا هذه الحادثة، طبيعة شخصيته، حيث يتقن التعامل من المؤسسات والهيئات، ويحسن الرفع من مكانته، وتكشف عن طبيعة الترتيبات التي وضعها – دوشاتوبريان - حول زيارته للأماكن المقدسة، وأماكن مبيته، ونستدل أنه قد رتب أوضاعه أثناء وجوده في إسطنبول، معمداً عن نصائح وإرشادات آباء الكنيسة اللاتينية الأرثدوكسية، وهكذا كان ترحاله ومبيته في يافا وسائر فلسطين معتمداً على قدرات وإمكانيات الأديرة، ولم ينفق من ماله الخاص، سوى الشيء اليسير، لربما أن طبيعة الرحلات في تلك الفترة التي أعقبت نهاية القرن الثامن عشر وهزيمة فرنسة الكاثوليكية في المشرق كانت تقتضي سلوك الرحالة هذا المسلك، ولم يعتمدوا على ما يقدمه حاكم يافا وحكام أقاليم فلسطين من تسهيلات.

استقرت سفينتنا قبالة يافا، وكانت منارة المسجد في الشرق من المربع الجنوبي الشرقي للمدينة، ورست سفينتنا اللاتينية بعيدة عن المرفأ في عمق المياه، لكي تستطيع

القوارب اليونانية أن تتحرك قرب الرصيف الصخري، وفي حوض يافا[7]. لم يبالغ - دوشاتوبريان – خلال وصفه المرفأ وحوضه ورصيفه، بل هذا الوصف يتناغم مع عدة مصادر تاريخية.

نزل المسافرون دون ضجة على الرغم من تسارعهم المشروع، ولم يصدر عن هذا الجمع من العجائز والرجال والنساء والأطفال عند هبوطهم على الأرض المُقدسة تلك الصرخات ولا ذلك البكاء أو النحيب الذي أراد بعضهم أن يؤديه برسوم وهمية مضحكة، فقد كنا في غاية الهدوء، وكنت من بين كل الحجيج الأكثر انفعالاً بالتأكيد[8]. وكأن - دوشاتوبريان – يوحي للقارئ عدة أشياء، منها الخوف الذي ارتاب الحجاج، نتاج خشيتهم المسبقة من العرب والحكام الأتراك، حال بينهم وبين إظهار تلك المشاعر التي تحدثوا عنها وهم على ظهر السفينة، أو أنه قد قصد بها أن يتهمهم بالنفاق والكَذِب وزيف المشاعر.

انتظر – دوشاتوبريان – على ظهر سفينته حتى عاد القارب وفيه خادمه اليوناني، وبصحبته ثلاثة من رجال الدين اللاتين الكاثوليك، تعرفوا عليه بفضل ملابسه الإفرنجية، كما يقول، وصافحوني بود ظاهر، كانوا من الإسبان ويتحدثون لغة إيطالية صعبة على الفهم، وتصافحنا بالأيدي كما لو كنا من وطن واحد، نزلت معهم إلى زورقهم، وولجنا إلى المرفأ من خلال فتحة بين الصخور، وكانت خطرة لكي تُتيح مرور زورق صغير، تقدم إلينا العرب الواقفون على الضفة داخل الماء، وقد بلغ الماء أحزمتهم، لكي يحملونا على أكتافهم، وحدث خلال ذلك مشهد مُسلي، وكان خادمي يرتدي معطفاً يميل إلى البياض، وهو اللون المفضل لدى العرب، فظنوا خادمي هو الشيخ القادم من إسطنبول، فأمسكوا به وحملوه بانتصار رغم معارضته، في حين أني وبسبب لباسي الأزرق، حُمِلتُ بلا اهتمام على ظهر متسول رث الثياب[9].

لم يحسن - دوشاتوبريان – أن يشكر ويبدي مشاعل الود تجاه من بادروا بزوارقهم ونقلوا الحجاج تباعاً إلى بر الأمان، وحتى أنهم لم يكلفوهم النزول في المياه والولوج إلى الضفة حيث اليابسة، رغم أن ذلك لا يبرر تقاعس الإدارة المحلية وعدم قيامها ببناء ممرات حجرية وخشبية، تتيح للزوار الانتقال عبرها إلى اليابسة.

لم يتغير تصميم مرفأ يافا طوال نصف قرن، كان قد فَصَلَ بين رحلتي – دوشاتوبريان- عام 1803م وروجرز عام 1855م، بحيث تكرر ذات الوصف في رحلة روجرز.

حيث كان عُمقِ المرفأ في حدود 50 قدم، ولا يمكن عبوره سوى بقوارب صغيرة[10]، وكذلك يتفق معهم – دي لامارتين حينما زار يافا في رحلته عام 1832م، ووصف المرفأ بالسيء وتأوي إليه الزوارق فقط، ولها أيضاً مرسى طبيعي خطير جداً، عانينا منه بأنفسنا عندما أبحرنا إليها في رحلتنا الثانية[11].

وتحدثت - ماري روجرز - عن نفوذ الدول الأجنبية ومشاهد تواجدها في ميناء يافا. ووصفت لنا تواجد بارجتان نمساويتان على مقربة من المرفأ، تقلان وفود رسمية لزيارة القدس، وبعض السفن التجارية الفرنسية واليونانية، وبعض الزوارق العربية الصغيرة[12]، وتعلوا القنصليات الأجنبية والأديرة أعلام ورايات بلادها، وعلى بعض السفن أيضاً[13]. على ما يبدو هي جزء من مظاهر التغيرات الجديدة، التي جاءت نتاج الإصلاحات العثمانية، وأتاحت للأجانب حرية وسهولة زيارة فلسطين، ونستنتج من ذلك أهمية مدينة يافا وواقع الحركة التجارية فيها في العام 1855م.

تأمل – دوشاتوبريان – ملابس وملامح وسحنة وجه قادة الزوارق ممن اقتربوا من سفينته في رحلته عام 1803م، ولون بشرتهم كذلك، وهي من العرق العربي ومِن تُخومِ الصحراء[14]. وكأنه قام بالفصل بين العرب وأهل الصحراء، وفق ملامح وسحنة وملابس قادة الزوارق، ولا أعلم أكان قصده الجمع بين العرب وأهل الصحراء في ذات السياقات، ومن ذات العرق أو أنهم ليسوا سوى غُزاة من أهل الصحراء، وأن يافا ليست مدينتهم، ، وهذا ما يمكن أن نستنتجه من هذا نزعته العنصرية، ومن تصوراته المسبقة.

رَكَزَ – دوشاتوبريان – على ملامح السِحنة ولونِ البشرة خلال تأملاته الأولى للعرق العربي عام 1803م، بينما كان تركيز – روجرز – عام 1855م على ملابس وأزياء كل الأجناس المتواجدة في الميناء، وذلك نتاج اختلاف الثقافة والنظرة المختلفة بينهما. حيثُ وصفت – روجرز – الأزياء المحلية في محيط المرفأ بالزاهية من حيث ألوانها، حتى أن بعض الغربيين كانوا يَرتَدون أزياء دارجة في بلاد الشام، تميزت بلونها الأبيض[15].

3:1. مناخها وبيئتها:

عندما زار – دي لامارتين – مدينة يافا عام 1832م، وصفها بالمكان الوحيد في المشرق الذي يتعين فيه على عاشق الطبيعة والوحدة أن يختاره كي يقضي فيه فصول الشتاء، أما مناخها فيتوسط مناخ الصحراء المصرية الفظ، ومناخ الساحل السوري الذي

تَهطُل فيه الأمطار أثناء الخريف، لو كان لي أن أختار مكاناً أقضي فيه فَصلَي الربيع والخريف، لقضيتهما في سفوح جبل لبنان أو صيدا أو بيروت أو اللاذقية، أما لِحَر الصيف سأختار مرتفعات لبنان التي يُرَطِبها هواء البحر الذي يهب من وادي الأرز ومن القمم القريبة المُكللة بالثلج[16].

ومما قاله – دي لامارتين - سأقضي الشتاء في بساتين يافا، لأن لهذه المدينة شيء خاص في سمائها وأرضها، شيء رائع وجليل ومزركش، لم أجده في أية من البِقاع التي اجتزتها، لا تستريح العين إلا عندما تنظر إلى بحر فسيح ماؤه وسماؤه زرقاوان، وإلى حصى الصحراء المصرية التي تَعتَورِ الأُفُق فيها أحياناً قامة جَمَل يَخُب ويَحتَز كالأمواج، وإلى القمم الخضراء والصفراء المزروعة بأشجار البرتقال التي تتكاتف حول يافا[17].

تكشف هذه الجُمَل جانب من مهارات – لامارتين -، سيما الجانب الجمالي، وتذوق الطبيعة، والمعرفة المسبقة بمناخ وتضاريس مدينة يافا، ولذلك وجدنا الكثير من هذه التعبيرات والانطباعات في مدونات رحلته إلى فلسطين، وانعكست على مواقفه وانطباعاته، ومنحته هامش جَيِد من الموضوعية، على اعتبار أنه كاتب وأديب، ومثقف.

2. الحياة العامة في يافا

تبدو يافا عام 1850م وفق – فلوبير - من بعيد عبر ساحلها الشمالي كتلة طويلة من المنازل ذات الطوابق، وصلها، وكانت خمسة مراكب راسية في الخليج، دخل المدينة صعوداً، حيثُ مرره بالمقبرة على منحدر من الأرض، كانت سقوف بعض البيوت على شكل قِبابٍ مستَديرة، ومررَ بأشجار التين الشوكي وبساتين عدة، قطعَ وسط يافا عبر ممر ضيق، ونزل في خان أرمني، فيه حجرة تُخصص للنساء، مُربعة ونوافذها من الخشب، وتمضي أزقة يافا صعوداً ونزولاً، وهي متسخة، تعج بأصناف من القاذورات والنفايات[18].

ليس هذه الانطباع التشاؤمي هو الوحيد في كتاب رحلة - فلوبير -، بل لم يتقن أن يعبر عن روح الشرق وجماله، وكأن مخياله قد أصابه شيء من العَطَب، أو حالةٍ نفسية قد ألمت به، رغم رواياته الشيقة التي اشتهر بها في أرجاء أوروبا، إلا أنها تميزت بطابعها الحزين، ولذلك انعكست على أسلوب تدوين رحلته، وتوحي مجمل انطباعاته بأنه مثقف عاجي، ينظر من علو، لا يحسن أن يفهم الواقع كما هو، أو أن يتنقل بين ثنايا ومفاصل المجتمع، ويتذوق أنساقه الاجتماعية.

1:2. يافا عبر نافذة الخان الأرمني

يعود – دوتشـــاتوبريان – ليصـــف لنا جوانب من داخل يافا، لكنه لم يتحدث عن المجتمع والأســواق، بل قدم صــورة عن الحياة العامة في الأدرية وعند الآباء والرهبان فقط، وهي غير كافية لتكشف عن عمق ديناميات المجتمع وتنوع أنساقه.

ويبين ذلك حينما رافقه احدى الرهبان إلى مضـــافة الآباء، وكانت عبارة عن منزل متواضــع من الخشــب، مُشَــيَداً على المرفأ، ويتمتع بمنظر جميل يُطل على البحر، وحينما قادهُ مُضيفه إلى المصلى أولاً، وكان مُضاءاً تماماً، وهناك حمدوا الله لأنه أرسل لهم شقيقاً، ويقول عن هذا المكان أنهُ كان مثيراً للإعجاب الديني حقاً، انك تجد فيه أصــدقاء ومعنويات في البلاد الأكثر بربرية[19]. كان بمقدوره أن يصــف الطريق التي تربط الخان بمدخل المدينة، بما فيها من أزقة وطرازٍ معماري وأســواق وأجناس من الناس، لكنه اكتفى بوصــف المظهر الخارجي للمدينة بشــيء من التســطيح، واســقط من كتابه الكثير من المشــاهد التي كان بمقدوره أن يتحدث عنها، لا يمكن الجزم حول أســباب ذلك، ولكن لربما نُرجعها إلى مبتغاه من وراء تدوين كتاب رحلته، وإلى طبيعة الفئة التي يكتب لها، لربما كانت كتاباته موجه إلى الفئات المتدينة أو كل من يرغب في زيارة الأراضــي المقدســة، أو ربما أنه اســتســلم لتلك التوجيهات والنصائح والتي تلقاها من الآباء والرهبان.

اشتملت غرفته في الدير على طاولة وسرير وحبر وورق وماء بارد وشراشف بيضاء، مر بها قبل أن يذهب إلى قاعة الطعام، وحينما دخل قاعة الطعام، وجدنا فيها أثنين آخرين من الآباء، جاءوا من رام الله متوجهين إلى إسطنبول، وأنهى صلاة المائدة معهم، في حين كان قد سبقهم سبقهم في أداء صلاةٍ من الأعماق، ويصف مكونات المائدة، التي وضعت على طاولة صغيرة ونظيفة ومنعزلة، وضعوا عليها الدجاج والسمك وفاكهة رائعة مثل الرمان والعنب والتمر، وكانت جميعها ناضجة، إلى جانب قنينة نبيذ قُبرُصي وقهوة مَشرقية، ويجري –دوشاتوبريان - مقارنة بين ما قدموه له من أطايب الطعام، بينما كان الآباء يأكلون القليل من السمك الخالي من الملح والزيت، كانوا مَرحين باعتدال غير متكلفين، ولكن بأدب، وأنهم لم يطرحوا الأســئلة بلا جدوى أو الأســئلة المُتَطَفِلة العابثة، ودار جل الحديث حول رحلته وعما يمكن أن يتخذه من إجراءات خلال رحلته.[20]

ويتضح مما سبق أن مجمل تفاصيل رحلته إلى الأماكن المقدس قد جرى ترتيبها مع الآباء في هذا الدير، حيث أرسل الآباء خبر زيارتي إلى شيخ العرب في جبل يهوذا، وإلى الأب الوكيل عن رام الله[21]، ويقصد بشيخ العرب هنا أبو غوش، باعتبار أنه يشرف على البوابة الغربية لمدينة القدس، وتخضع تحت سلطته مناطق عدة من الجبال الواقعة غرب القدس وجنوبها، وهو المكلف من حاكم القدس بإدارة هذه المناطق وجمع ضرائبها، ويمكن أن نتوقع أن هذا الدير اللاتيني الأرثوذكسي الموجود في يافا كان يتبع لكنيسة رام الله اللاتينية، يتضح ذلك من خلال تتبع زيارته لمدينة رام الله، قبل القدس، وحواراته من الرهبان فيها.

امتازت مجمل حواراته مع الآباء والرهبان حول الظلم الواقع عليهم من المجتمع والحاكم في يافا والقدس، وسائر مدن فلسطين، وأنه يقع عليهم دفع الضرائب الباهظة والمضاعفة في كل مرة، وأن الآباء والرهبان يتعرضون في كل يوم للإهانات والتهديد بالضرب بالعصي والسلاسل والموت، ويذكر أنه في أعياد الفصح الماضي، غسل هؤلاء الآباء فَرش الصومعة، فسال ماء الغسيل الممزوج بالنشاء خارج المِضيَف، وَطَلى البَياض الحجارة، فمر تُركي وشاهد هذه الحجارة، فذهب يصرخ إلى القاضي بأَن الآباء قد رمموا منزلهم، فجاء القاضي إلى المكان فوراً، وقرر أن الحجارة التي كانت سوداء قد أصبحت بيضاء، ودون أن يصغي إلى الآباء، أرغمهم على دفع عشرة أكياس من النقود[22].

نستطيع أن نُعَلِق على هذه الرواية، ونبحث في مدى مصداقيتها، سيما عند الحديث عن جانب فيه مبالغة، سيما مبلغ العشر أكياس من النقود، وهو مبلغ ضخم جداً لا يعقل أن يتناغم مع القضية المشتكى حولها، ولا مع مقدرة الناس والأديرة مهما كان مصدر دخلها المالي، ولم يحدد أيضاً نوع النقود وعملتها (الفلس والقرش والبارة...)، لربما قام الآباء بسرد هذه القصة وغيرها من القصص، نتاج ما اعتاد بعضهم عليه، بهدف الحصول على صدقات وتبرعات هذا الحج وغيره من الحجاج، أو تأليب الرأي العام في أوروبا، واستثارة مشاعر الحزن على الأماكن المسيحية وعلى الرعايا المسيحيين في فلسطين وبلاد الشرق، فهي وسيلة تسهم في استمرار تدفق حركة الحجاج إلى الأراضي المقدسة، وتلهب مشاعر غيرهم لزيارتها والتقديم يد العون للأديرة وللكنائس، وكان من بين تلك الأمثلة تأثر – غوستاف فلوبير في رحلته بكل ما كتبه - دوشاتوبريان - عن الأرض المقدسة[23].

ليست هذه هي القصة الوحيدة التي عرضها – دوشاتوبريان – في كتابه، بل يصف يوم وصوله إلى يافا وَتَعَرُض الأَب الوكيل إلى تهديد بِشَدَّ رَقَبَتِهِ كالكلاب بالحبل من قِبَلِ خادم الآغا، وبحضور الآغا نفسه، والذي اكتفى ببرم شواربه بهدوءٍ ودونَ أَن يُكَلِف نفسه التفوه بكلمة لصالح الأب المُهان، هذه هي الجنة الحقيقية لهؤلاء الرهبان، والذين كانوا طِبقاً لعدد من الرحالة ملوكاً متواضعينَ على الأَرض المُقدسة، ويحظون بشرف عظيم[24].

لا يمكن أن نجزم حول مصدر هذه الروايات وإن كانت من نسج خياله أو هي قصص ذكرها له الآباء أو هي حقيقة كان يعاني منها الآباء والرهبان، ولكن لم نجد هذه المشاهد قد ذُكِرَت في كتب رحالات غيره من الرحالة الثلاث، الذين اختصت بهم هذه الدراسة، بل وصفوا مشاهد الاحترام المتبادل ومظاهر الرخاء والبذخ وحرية التنقل، وعلاقات الآباء القوية مع حكام أقاليم فلسطين ومدنها ومع القنصليات الأجنبية.

كان الوصف الوحيد ليافا وجمالها هو مشهد البحر في ساعات المساء قبل المبيت، حينما قاده مضيفه مع المساء إلى ممر طويل إلى حجرته، حيث كانت الأمواج ترتطم بصخب بصخور المرفأ، ولما كانت النافذة مغلقة تخالها عاصفة، ولكنك عندما تفتح النافذة ترى سماءً جميلاً وقمراً ساكناً، وبحراً هادئاً، وسفينة الحجاج راسية في عرض البحر. كان بمقدوره أن يصف أصوات الباعة والأطفال في الأزقة أو حتى المباني والأشجار المحيط بالدير، لكنه اختار أن لا يذكر أياً من الحياة الاجتماعية، سوى بعض النتوء الغير مفهومة[25].

أبدى رغبته في التوجه لزيارة آغا يافا والطواف في يافا منذ الصباح الباكر، ولكن وصل الأب كاهن يافا، ورئيس المضافة، رغم أن الآغا بعث له برسالة فيها عبارات الثناء، إلا أن وصول الرئيس صرفه، حينما قال له أنت لا تعرف هؤلاء القوم، إن ما تظنه إشارة تهذيب هو تجسس، ولم يأتوا لِتَحيَتك بَل لمعرفة من تكون، وللتأكد من وضعك المادي، أكنت فقيراً أو غنياً، وان كان بالإمكان نهبك، وقال له الآب الرئيس إن أردت رؤية الآغا فما عليك أولاً إلا أن تحمل له الهدايا، وحينها سوف لن يَفوتَهُ أن يعطيك رغماً عنك موكباً يرافقك طوال الطريق، وسيظن حينها العرب في الشوارع والأزقة بأنك إفرنجياً ثرياً ذاهباً إلى الحج، إلى الضريح المقدس، وما عليك إلا أن تدفع لهم مبلغ مُضاعَف فوق جزية الكفر أو يقومون بمهاجمتك والاعتداء عليك[26].

يتضح هنا هامش الصراع الدائر حول سلطة الكنيسة وسلطة الدولة في يافا وغيرها، حول مشهد تقديم العون والمساعدة للزوار الأوروبيين، ولم نجد هذا التكامل الذي كان يفترض أن نشاهده في سردية هذا الآب، لكن لم نجد سوى ما يؤكد على التعارض والصراع الخفي، كان يفترض أن يرافقه هذا الآب في زيارته إلى الباشا، سيما كونه قدم له كل عبارات الثناء، من خلال الرسالة التي بعث بها إليه، ويفترض أن وضع على رأس أولوياته التجوال في أرجاء المدينة، قبل أن ينطلق في رحلته.

ويكمل الآب سرديته التي يبدو أنه معتاد عليها، وأنها ليست من خيال -دوشاتوبريان- ، بل هي ذات السردية التي يتحدث عنها لكل زائر مسيحي للأماكن المقدسة. ومن بينها أنك تجد أمامك على أبواب القدس معسكر باشا دمشق الذي، يأتي لتحصيل الضرائب قبل قيامه باصطحاب القافلة إلى مكة، وَسَيُعَرِضك للمَهانة، لأن موكبك سيوحي له بالقلق، وعندما تصل إلى القدس سيطلبون منك ثلاثة أو أربعة آلاف قرش ثمناً للموكب، وما أن يعلم الشعب بوصولك حتى يحاصرونك بشكل كما لو كنت تمتلك الملايين، ولن تُرضي جَشَعهُ، وسَتُغلَق الشوارع أمامك، ولربما تتعرض للتمزيق على باب الضريح المقدس، ننتظر اليوم خبراً، فإن كان طيباً سَنُغادِر لَيلاً، وتصل سالماً معافى إلى القدس، وبأقل التكاليف[27].

وان صح حديثه حول الضرائب التي يفرضها باشا دمشق في مثل هذه الأوقات، فهي ضريبة يحصل عليها والي دمشق من حكام فلسطين، وتم جبايتها من عوائد الضرائب العامة المخصص لفلسطين، وهي ليست ضريبة إضافية، وكان يقع على عاتق حُكامِ أقاليم فلسطين تقديم المعونة والطعام للحجاج المسلمين وحماية القافلة من هجمات البدو وقطاع الطرق، ولم يتم فرض ضرائب تخص هذا الشأن على الحجاج الأجانب إلى البلاد المقدسة، وكانت تعليمات حُكام الأقاليم تؤكد أن دورهم أيضاً مرافقة الحجاج المسيحين وتقديم العون والحماية لهم، وهذا ما أكده الآب عند حديثه مع – دوشاتوبريان-، لكنه أضاف إليه سردية فيها تخويف وترهيب، بحيث دفعه نحو الابتعاد عن حماية ورعاية الدولة، والاكتفاء بالخدمات التي يقدمها الآباء.

لكنه بعد فترة من الوقت كانت قد مرت فيها رحلته، سيما في القدس، اختار أن يعتمد على الخدمات التي قدمها له حاكم القدس، سيما خلال رحلته إلى بيت لحم ونهر الأردن وأريحا، حيث رافقه إحدى الآغوات واسمه – علي - وعدد من الجُند، وتحدث عن

شـجاعته، واسـتفاد منه الكثير، وبتنا نلاحظ مظاهر الانفتاح المحدود فيما كتبه حول رحلته، خلال هذه المرحلة، التي ابتعد فيها عن الرهبان بشكل جزئي، سوى عند المبيت ليلاً في ديرهم، حتى أن الآغا علي قد اجبرهم على خلع ملابسهم التنكرية التي ارتدوها عند خروجهم من يافا، وعودتهم لارتداء ملابسهم الفرنسية، هو ما يوحي إلى جوانب الحرية التي كانت تعيشها مدينة القدس عام 1803م، على عكس تلك الفترة التي مر بها من يافا مروراً بقرى يالو وأبو غوش وقالونيا ولفتا والأطلال والقرى والمزارع المحيطة بأسوار القدس، كان يطغي عليها رواية الآباء وذهنية الكُتب المُقُدَسة لدى اليهود والمسيحين حول الأرض المقدسة[28].

2:2. يافا عَبر نافذة مركز الحجر الصحي

اختلفت مشاهدات – ماري روجرز – عام 1855م نتاج اختلاف الثقافة والتعليم والهدف من الرحلة مع – دوشاتوبريان – عام 1803م. حينما وصفت اقتراب قارب الحجر الصحي من سفينتهم، وعلى ظهره موظفي الحجر ورجال أمن، منحوهم قطوفاً من البرتقال والمشمش والليمون، قبل أن يصعدوا على قارب الحجر، وقام بجرهم قارب أخر عليه بحارة عرب، حافظوا على عدم لمس قارب الحجر حتى لا يُحجَروا أيضاً[29]، نستقي من هذه الرواية عدة تصورات حول نمط وطبيعة الطراز الإداري في مرفأ يافا، ومدى اهتمامه باستقبال الزوار والحجاج الأوربيين بشكل لائق وجميل، وَتُبَيِن مدى الحرص على السلامة الصحية.

اعتادت يافا أن يوجد فيها حجر صحي خلال فترة طويلة، هذا ما تؤكده أيضاً رحلة – فلوبير – الذي سبق – روجرز - في زيارته إلى يافا عام 1850م، حيث تحدث في كتابه عن وجود مبنى لِلحَجرِ الصِحي في يافا عند وصوله إليها قادماً من شمال فلسطين.

لم تتوقف إجراءات السلامة الصحية عند هذا القدر الذي وصفته -روجرز -. بل تجاوزته إلى أنه تم نقلهم حَملاً من القارب إلى اليابسة، واقتيادنا إلى بناء مخصص للحجر الصحي، يتيح الحصول على شهادة سلامة صحية بعد التأكد من سلامتنا، وكان هذا البناء في احدى جوانب سور المدينة القريبة من المرفأ[30]، وهذا أيضاً ما يؤكد على الجدية والحزم في موضوع الإجراءات الصحية للوقاية من داء الطاعون والحيلولة دون انتشاره في يافا.

أسهمت وظيفة شقيق – ماري روجرز- وموظفي قنصلية بلاده في توفير ما يلزمه للمبيت داخل مبنى الحجر الصحي. حيث زارهم السيد خياط ممثلاً عن ممثلية بلاده في

يافا، وفر لهم فرشـــات وحُصُـــر ولِحافات للنوم غير تلك التي وفرها لهم الحَجر الصـــحي، وزودهم صـــديقهم القادم من القدس بالأثاث والأواني للطبخ وغيرها من اللوازم[31]، كل ذلك بمعرفة إدارة الحجر الصـــحي، وفق تدابير لا تتيح للســـيد خياط وغيره الاحتكاك المباشـــر معهم، ويؤكد ذلك على فعلية عمل القنصـليات في مدينة يافا، ونتعرف على شـكل تنسـيقه إن لم نَقُل تبادل الأدوار مع الحكومة المحلية في يافا.

تصـــف لنا – روجرز – جانب أخر من جوانب الحياة العامة في يافا عام 1850م، تصفها بموضوعية كاملة، مما يمنح كتابها الشيء الكثير من المصداقية، عندما تحدثت عن أنواع الأطعمة وأسـعارها وخلال وصـفها لجيرانها المسـلمين في الحجر الصـحي، حينما اشـترت هي وشـقيقها من يافا خلال وجودهم في الحجر الصـحي الدجاج وحليب النِعاج واللبن والأَرُز والفاكهة والخضـروات، وتصـف أسـعارها بالمعقولة، وتصـف صـلاة جيرانها المسـلمين حينما أتموا الوضـوء، وصـلوا مجتمعين، بل لم تتوقف عند ذلك، حيث أعجبت بمشـهد اهتمامهم بغســـل أيديهم حينما أكلوا طبَقٍ كبير من الأرز والســـمن والبندورة، وعندما فرغوا شـــرعوا بتدخين غلاييـنهم وأراجيلهم، لقد وصـفت هذا بشيءٍ مِنَ التَفصيلِ الدَقيق والموضوعي[32].

تميز مبنى الحجر الصحي بحيزه الكبير والواسع، وفيه عدة غرف، وبعضها يفتح على ســاحات، وفيها بعض الأشـجار، لهذه الغرف نوافذ زجاجية، وتطل على مشـهد منازل يافا وتطل على مياه البحر، وأتيح لنا المشـي في ســاحته، بشـــرط عدم الاحتكاك مع غيرنا من المجموعات المحجورة[33].

تؤكد رواية – روجرز – أن هذا الحجر وفر طباخ مختص، أعد وجبة العشـــاء، ووضـــع الطعام في الســـاحة الواســـعة أســـفل شـجرة التوت الكبيرة، ووضـــع لهم بجانبهم القنديل، وكان إلى جانبهم مجموعات أخرى تتناول لوحدها وجبة العشـاء تحت ضـوء القمر على الأسطح المستوية، ومنهم الزوار والحجاج والبدو، لا توجد نساء بين الزوار ولا بين طاقم الحجر الصحي[34].

3:2. أزقة يافا:

لم تُفَوِت – ماري روجرز – فرصـــة التجوال بين أزقة يافا بمجرد انتهاء ليلتها الأولى وخروجها من الحجر الصـــحي، أول ما رأت قرب الجر مقبرة، وبجوانبها صـــوامع للحكومة، ووصـــفتها بالضـخمة جداً، يحفظ بها القمح خلال موســم الحصـاد، ونعلم من حديثها عن

مشـهد الجمال وهي قادمة من عدة مناطق، وَتُفرغ أحمالها الثقيلة من القمح أن يافا وعموم فلسطين كانت تمتلك الاكتفاء الذاتي من القمح[35].

وصفت النساء القادمات من الأرياف، ببراقعهن وعباءاتهن البيضاء، وسلال العنب والتوت على رؤوسهن، وفي جوارهن أشجار جميلة من البرتقال والليمون والنخيل والرمان، ونعلم من هذه المشاهدات ما يؤكد أن مبنى الحجر الصحي هو بمعزل عن البلدة، وبوابته خارج سور يافا، وتطل على محيطها[36].

قبل أن تدخل يافا وقفت قرب بوابتها العريضة التي تُؤدي إلى طريق داخلي عريض، احتشدت في محيطه الجمال والبغال والفلاحين والبغالة، وبجانب البوابة سوق الفاكهة والخضروات، وعدد من الأكشاك والخيام، وبجانبها أشجار وافرة الضلال، أسفلها رجال يدخنون، وعليهم طرابيش وعمائم، وعدد من الباعة المتجولون لبيع القهوة والشاي والفحم المشتعل والجاهز لإشعال مئات الغلايين والأراجيل[37]، هي مازالت تصف حيوية المجتمع اليافاوي خارج الأسوار، وتسلط الضوء على جانب من تجارته مع الريف.

لكنها عندما ولجت إلى ذلك الممر العريض داخل المدينة اكتملت الصورة بشقيها على صعيد الاقتصاد في الريف والمدينة، وانشغالها بالعمل النشاط، وتبدو واضحة مظاهر الرخاء والازدهار ومظاهر علاقاتها مع دول العالم الخارجي، حينما شاهدت الكثير من البازارات وعلى جوانبها تصطف الدكاكين الصغيرة، التي تُظَلِلها قطع القماش والحصائر الضخمة، وَتَصِف صُناعِ الأحذية المنهمكين في صناعة الشباشب المغربية والصفراء والأحذية الجلدية والحمراء في العديد من الدكاكين، وكذلك الخياطين المنشغلين في تطريز الأثواب، وصانعي الغلايين، ودكاكين أخرى تعرض الحرير المستورد من حلب ودمشق، والقطن القادم من مانشستر، والبراقع والمناديل المستوردة من إسطنبول وسويسرا، ويدخنون بشرهة ويستلقون باسترخاء، وكانت دكاكين الحلاقين والمقاهي أكثر اتساعاً، والزبائن بأعدادٍ كبيرة، لا يوجد نساء في السوق، والبيع والشراء من واجب الرجال والصبية[38].

وقفت – روجرز – عند ملابس النساء، ووصفتها بشكل دقيق وجميل، عَكَسَ انطباعاتٍ لها بعد اجتماعي وتراثٍ قديم، ونسقٍ حضاري وإنساني مرتبط بالمجتمع والبيئة، ورغم أنها وصفت لباسها في بداية حديثها بالبرقع البسيط الذي يغطي كامل جسمها، ويغطي الوجه والرأس، إلا أنها تحدثت عن ألوانه الزاهية، ووصفت الشال الذي كان يحيط

بالخصـــر على شـــكر حجزات، ثم وصـــفة غطاء الرأس على شـــكل عباءة تطوى من قطعة قمـاش نـاعمـة، تغطي الرأس والكتفين، وتطوى بعنـايـة عنـد جبهـة الرأس، وتغطي الجزء الأمامي من لباس المرأة بالكامل، وترتفع ثلاث بوصـــت عن الأرض، وتُزم من عند الخصـــر، وترتخي من الخلف بشـــكل مســـتقيم، وصـــولا إلى كعب قدم المرأة، وتبقى اليدان داخل العباءة، للامســـاك بها من الداخل، وبذلك يســـتحيل أن تُمَيِز المرأة التي ترتدي هذا اللباس، وترتدي خُف أَصـــفر أو أحمر، ينتهي هذا الخُف بنتوء مرتفع عند نهاية أصـــابع القدم، هذا هو الهندام الخارجي للنســـاء في البلدات الفلســـطينية، وتحت العباءة ترتدي المرأة بنطالٍ طويل وناعم وتعلوه تنورة وســـترة وقميص، وهو تحت العباءة أو الإزار[39]، هكذا وصـــفت – روجرز – لباس المرأة الفلسطينية في مدينة يافا وريفها.

تنوعت مظاهر الرفاهية في يافا، كان من بينها المشـــاهد الخارجية للمنازل وبواباتها ووســـائل التنقل، ســـيما أنواع الدواب، وبأن مداخلها فخمة، وعلى جوانب مداخلها قناطر وقواعـد رخـامية وتيجـان منحوتة ومزخرفة، وهي جزء من أعمـدة جرانيتيـة، يُرَجَح أنها قـد جُلِبَت على الأرجح من خرائب عســـقلان، وكانت تســـتخدم في يافا للمســـاعدة في امتطاء صهوات الخيول أو للنزول عنها[40].

لم يذكر – لامارتين – عدد كل مكون ســـكاني من مكونات مدينة يافا، بل اكتفى بذكر عدد ســـكانها، وتنوع أعراقها وطوائفها، ويمكن أن نلمس هنا نزعته الشـــخصـــية في مواضـــع عدة، وَبُعدِهِ عن التفصـــيل والوصـــف والموضـــوعية، بل في كتاباته الكثير من الانتقائية.

ويبدو أن تعداد ســكان يافا في عام 1832م وفق – لامارتين - تراوح بين خمســة آلاف وستة آلاف من الأتراك والعرب والأرمن واليونان والكاثوليك والموارنة، ولكل طائفة كنيستها، فدير اللاتين رائع، وكان يُجَمَل أثناء وصـــولنا، ولكننا لم نحظى بضـــيافة هؤلاء الرهبان، فغرف الدير واســـعة، تبقى خالية، ولم تفتح لنا ولا لســـوانا، في حين يجد الحجاج صـــعوبة عندما يأووا إلى أحد الخانات التركية البائســـة، أو أنهم يدفعون غالياً في بيوت فقيرة يملكها اليهود أو الأرمن في يافا[41].

لكنه كشـــف عن مظاهر الحرية والتنوع في يافا، تلك المدينة التي أتاحت وجود هذا التنوع المســـيحي وهذا الثراء المادي في الأديرة، يؤكد حتماً أن هذه الرواية تفصـح عن مجتمع

متسامح وحكومة تساوي بين رعاياها، لكن هذا الثراء المادي، سيما في دير اللاتين، لم يتاح للرعية والفقراء، سيما الحجاج الأوروبيين الانتفاع من خيراته أو حتى المبيت فيه.

لم يوفق حينما لم يحسن إخفاء مظاهر البُخل في شخصيته، وعدم رغبته في الإنفاق المالي، ولم يتحرى الموضوعية حينما وصف خانات يافا العربية بأنها تركية وبائسة، واستثنى أهالي يافا العرب الفلسطينيين عندما تحدث عن الفنادق والمنازل والخانات، واختزلها بخانات الأتراك ومنازل الأرمن واليهود.

لم يختلف كثيراً – لامارتين – الذي زار يافا عام 1832م مع – فلوبير – الذي زارها عام 1850م، من حيث ابتعاد – فلوبير - عن الموضوعية وتجاهل سكان يافا وأهلها، واختزالهم بإحدى مكوناتها أو المرور على ذكرهم بشكلٍ عابر، إلا أنه أكد بشكلٍ غير مباشر على واقع يافا التي تحترم الأخر وتؤمن بالتنوع والانفتاح على مختلف الأمم والأجناس. حينما تحدث عن تناوله طعام الغداء في فندق يوناني، وأنه شرب خمراً قبرصي، وتناول سمكاً بارداً وزبيباً، ودخن الشيشة في مقهى أسفل الخان الأرمني الذي كان قد نزل فيه[42]، لقد استثنى أهل البلاد من حسبته، وأضاف إليهم العنصر اليوناني، لا أعلم خلفيات ذلك، بينما لم يذكر – لامارتين - اليونان في يافا، حتى الخمر لم ينسبه إلى فلسطين، رغم أن جبالها، بما فيها جبال القدس التي تقع شرق يافا، كانت تزدهر فيها زراعة العنب، وكانت تزدهر في أديرة القدس والجليل صناعة النبيذ، وعندما وقف عن تناوله وجبة السمك، اكتفى بوصفه بالبارد، رغم أنه من المؤكد قد اصطيد من سواحل يافا، وكذلك الزبيب من سفوح جبال القدس من الغرب.

لم يحسن - فلوبير – أن يتحدث عن الحياة العامة في يافا، حينما ابتعد وتوجه نحو وصفِ مظاهرٍ سطحية ومحدودة، لا تعبر عن شيء، سوى عن مظهر جميل محمدو، مثل تلك النافورة التي تتوسط الخان، لم يكلف نفسه في أن يصف ذلك الخان، من حيث عمارته أو من يرتده، وملابسهم وهيئاتهم. توقف عند تلك النافورة التي تتوسط الخان، معجباً بما فيها من تقاويس، وبين كل قوس والذي يله من الداخل برج وهمي صغير، على شكل قمع[43].

3. أريافها وطرقها مع الرملة والقدس

1:3. أريافها الشرقية نحو القدس

اختار - دوشاتوبريان – أن يَتَبِع تَوَجُهات الآب الرئيس، ولم يذهب لزيارة حاكم يافا، وخرج من يافا متنكراً بصحبة الرهبان. وغادر يافا إلى القدس في اليوم الثالث، من بعد الظهر، ارتدى خادمه عباءات من وبر الماعز، كان يرتديها البدو، ووضع – دوشاتوبريان - ثوباً فوق ملابسه، وامتطوا جياداً صغيرة، واستخدموا البرادع وسروجاً كانت لهم، وكانت أقدامهم موضوعة في حبال بدلاً من أن تكون في ركائب، وتقدمهم رئيس المضيف، ووصفه كما لو كان أخاً لهم، وثمة عربي شبه عارٍ يُريهم الطريق، وعربي آخر يتبعنا يسوس حماراً محملاً بحقائبنا[44].

يصف يافا قبل خروجه من بابها الجنوبي، وخلال مروره بين الحدائق التي يصفها بأنها كانت جميلة قبل أن تتعرض للدمار على يد أطرافٍ عدة، كانت قد تنازعت على أطلال يافا، إلا أنه مازال فيها عدد من أشجار الرمان، وتين فرعون والليمون، وعدد من النخيل وصبار الهند، وأشجار التفاح التي كانت تزرع كذلك في غزة وفي دير جبل سيناء، سرنا بين أنقاض المنازل التي تهدمت أثناء الحصار الأخير[45]، لعلنا نتذكر هنا أن رحلته جاءت بعد انتهاء الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين 1798-1801م، وأن يافا قد نُكِبَت على يد نابليون بونابرت، حينما هدم مبانيها وأسوارها، وارتكب مجزرة فيها راح ضحيتها ثلاث ألاف من أهاليها، ورغم تلك المجزرة التي استهدفت سكانها، إلا أن يافا وحاكمها بعد رحيل نابليون حافظوا على ثقافة التعدد والتنوع الديني والمذهبي والعرقي فيها، ولم يمنعوا زوارها، سيما القادمون من فرنسا مثل دوشاتوبريان 1803م.

تقدمنا في سهل صارون (سارونة) الذي اثنى الكتاب المقدس على جماله، وعندما عبره الأب نيريه في شهر نيسان 1713م، كان مغطى بأزهار الخزامي، وأنه نتاج تنوع الأزهار كان يشكل روضة بهيجة، وأن الزهور التي كانت تغطي في الربيع هذا الريف العريق فهي الروز الأبيض، والوردي، والنرجس، وشقائق النعمان، والزئبق الأبيض، والأصفر، والمنثور، ونوع من الزهور الخالدة الفواحة للغاية، وقد كان السهل ينبسط على امتداد البحر من غزة في الجنوب حتى جبل الكرمل في الشمال، وتحده من الشرق جبال يهوذا والسامرة[46].

لم يكلف نفسه في أن يصف السهل كما وصفه غيره أو كما كان، بل استعان بما عبر عنه الأب نيريه في نيسان 1713م، وعندما حاول أن يصفه، لم يحسن أن يستشعر مناخات الصيف في بلادنا حينما وصفها، وأنَ صديقه –نيريه- زارها في الربيع.

لم يكن السهل وفق - دوشاتوبريان - عند مستوى واحد، وإنما مكون من أربع هضاب يفصل بينها شريط من الصخور العرية الجرداء، وأرضه رملية، تنبسط ناعمة، بيضاء وحمراء، وكانت تبدو في غاية الخصوبة رغم أنها رملية، ولكنها وبسبب القهر الإسلامي، أصبحت أطرافها لا تضم سوى الشوك والأعشاب اليابسة الذابلة ومتشابكة مع مزروعات للقطن هزيلة، وكذلك الذرة والشعير والقمح، وتظهر لنا هنا وهناك بعض القرى المُهَدَمة، وبعض من جموع أشجار الزيتون والجميز[47].

هنا نتساءل كيف يمكن أن تبدو تلك القرى والأرياف بعد أن دمرها نابليون وجيشه الفرنسي وقتل وهَجَر أهاليها؟، وهل يمكن أن تُعَمَر الأرض بعد أن أفرغ العديد من ساكنيها؟، لا يُعقل أن تعاد المياه إلى سواقيها والخُصب إلى بساتينها إلا بعد سنوات، من تلك المجزرة اللعينة.

اختلف وصف – ماري روجرز – حول مشهد الحياة العام في الأرياف عام 1850م، وتحلت بالشيء الكثير من الموضوعية، عند مقارنتها بوصف دوشاتوبريان 1803م، انطلقت في رحلتها، من منزل عائلة السيد خياط، وتناولنا الفطور في منزلهم، وودعونا بحرارة على أمل العودة مجدداً، وودعنا أولادهم والخدم، وحُملت البغال بواسطة البغالين أغراضنا وحقائبنا للاستعداد للرحلة إلى القدس[48].

لم تشاهد – ماري روجرز - عربة واحدة تجرها الحيوانات في فلسطين في تلك الزيارة، وكانت حالة الطرق مُزرية، ولا تَصلِح فيها العربات، والوسيلة الوحيدة هي البغال والجمال والحمير والخيول[49]، كانت العربات في أوروبا احدى أهم مظاهر الرفاهية ووسيلة للتنقل، نتاج طبيعة الأرض السهلية التي تميزت بها مناطق شاسعة في أوروبا، بينما مجمل جغرافية فلسطين هي جبلية ووعرة، سيما المدن المقدسة، لو كانت رحلة ماري في محيط يافا وأريافها فقط، لاستطاعت أن تجد أكثر من عربة تقلها، لكنا كانت تقصد في رحلتها مدينة القدس في أعالي الجبال التي تحد يافا من الشرق.

وبما أن رحلتها كانت في فصل الربيع، لابد وأن تُظهر الكثير من جمال البيئة في ريف يافا خلال طريقها نحو جبال القدس. تزامن خروجها من يافا مع الغروب، حيث كان يستمتع بعض الأهالي بالغلايين إلى جانب أسوار يافا خارج البوابة، وبعضهم يمتطي صهوة جواده ويتمشى في الطريق الرملي العريض[50]. وهي إشارات تحمل مضامين مرتبطة بالأمن والرخاء، سيما وهي تصف مخارج يافا مع الغروب.

حينما – روجرز – برفقة قافلتها في ممر ريفي بين شجر الصبار الكبير والمتشابك، وبينه أزهار وأسفله حشائش كثيفة، وتأكد روجرز أن موسم حصاده غزير، وإلى جانبه مُعرشات من الكرمة البرية، وتحيط بها وتلتف عليها، وبيارات الفواكه الجميلة، وهي من أشجار النخيل المثقلة بثمارها، والفستق والمشمش واللوز والتوت وأشجار الرمان بعناقيدها الكثيفة من البراعم، ولونها الأحمر القاني، وأشجار الأكاسيا والخروب والطرفاء والتين والزيتون، وهي بيارات جميلة وواسعة، وبعدها أراضي خالية[51].

شاهدت في الطريق أكوخ صغيرة وخيام للفلاحين هنا وهناك بعد حقول الخبيزة وبساتين الخيار، شاهدنا فوقنا نسور وصقور، جماعات من الفلاحين وثيرانهم يأخذون قسط من الراحة على جانبي الطريق، وتوجد قطع من البلاط الصلب واسعة لدرس الحنطة، قربها فلاحين يرتاحون[52]، وبين الفترة والأخرى نمر ببئر ماء أو ضريحا أو قرية وادعة تغط في النوم أو كرم زيتون عتيق حتى وصلنا الرملة[53].

وصفت – روجرز – مظاهر جمال الطبيعة في أرياف يافا، ومحاصيلها وخيراتها ونشاط فلاحيها، وتلك الحدائق والبساتين ورغد العيش ومظاهر الاكتفاء الذاتي، كانت تعابيرها في غاية الدقة والصدق، وعبرت عن الواقع كما كان في حدود عام 1850م، مما يؤكد أن فلسطين غنية وثرية، مادامت بعيدة عن أيادي الاستعمار الأجنبي وعن مشاريعه.

2:3. الطريق بين يافا والرملة:

غادر – فلوبير – برفقة قافلته يافا، عبر طريق رملي تتخلله شجيرات التين الشوكي، وجدنا نبع ماء مبني على منوال نافورة الخان، بتقاويس وأبراج وهمية ذات رؤوس على شكل أقماع، وقوس كبير، وفي الوسط يقع النبع ذاته، وخلفه ثلاث أشجار سرو، إلى جانبان حقل من السمسم، وفي الطريق إلى الرملة التقينا بنساء، واحدة منهن زنجية، ويمشين سافرات[54].

تبدو واضحة مبالغات – فلوبير – عند وصفه النساء بالسافرات، تكررت هذه الأوصاف والتعابير في عدة مدن وقرى وتجمعات بدوية زارها – فلوبير-، سيما في قرى الجليل الأوسط، وعند بدو الجليل الغربي، على عكس غيره من الرحالة، ممن وصفوا غطاء الرأس عند المرأة العربية، بالتفصيل، وميزوا بين أشكاله ومكوناته في المدينة والقرية والبادية، لكن لم يتحدث أياً منهم حول سفور المرأة العربية في فلسطين، باستثناء – فلوبير – . وكأنه كان يختلس النظر خلف أسوار المنازل وداخل الشرفاء وقرب عيون الماء، وكأنها نزعة حب الفضول أو مرض كان يعاني منه، هذا ما تشي به رواياته المتكررة حول سفور النساء في فلسطين[55].

يقول – لامارتين - شهدنا خارج أسوار يافا مشاهد عجيبة وغريبة، سيما تلك الثياب التي ترتديها السكان أو المسافرون الذين يبثون الحياة في أطرافها، هم من بدو أريحا أو طبريا الذين يلبسون الفروات الصوفية البيضاء، وهم من الأرمن الذين يرتدون القنابيز المقلمة بالأزرق والأبيض، وهم من اليهود الذين يأتون من كافة أصقاع المعمورة ويلبسون شتى الثياب الشائعة في الأرض كلها، وهم جنود مصريون يرتدون السترات الحمراء، ويشبهون جنودنا في فرنسا، وبعيونهم الحيوية وسرعة مشيتهم، ويشعر المرء أن عبقرية ونشاط الإنسان العملاق قد انتقلا إليهم وبثا الحياة فيهم، ليحققوا هدفاً مجهولاً، وهناك أيضاً الأغوات الأتراك الذين يمشون متبخترين فوق صهوات جيادهم ويتبعهم عدد من العرب والعبيد السود، وهناك عائلات فقيرة من الحجاج اليونانيين تجلس في زوايا الشوارع وتأكل الأرز والشعير المغلي في زربادي خشبية، وتقتر على نفسها لتصل إلى المدينة المقدسة، وهناك النساء اليهوديات الفقيرات اللواتي يلبسن الأسمال وينؤن بحمل كيس من الخرق ويسقن حميراً تحمل في أخراجها مجموعة من الأطفال بشتى الأعمار[56].

رغم أنه وصف مظاهر الرخاء في يافا ومحيطها بشكل جيد، إلا أنه لم يحين أن يميز جنسية رجال ونساء يافا، وصف رجالها العرب المسلمين بالأرمن واليهود، مدعياً أن هذا القمباز هو لباسٍ أرمني، نتاج مشاهداته في رحلات أخرى في أقاليم مختلفة، وذات الأمن حينما وصف النساء العربيات القادمات من أرياف يافا، بعد فلاحة الأرض والاستجمام بها، وادعى أنهن يهوديات فقيرات، ابتعد عن الحقيقة، في حين أنهن لسن باليهوديات، ولسن فقيرات، لأن تعريف الفقر شيء مختلف من مجتمع لأخر، وأن ما يظهر عليهن نتاج واقع

الحياة والعمل في الأرياف، لا أعلم السبب الحقيقي الذي يكمن خلف حرص الرحالة الأجانب في مجملهم على أن يبتعدوا عن وصف سكان البلاد وأصولهم الحقيقية والأصلية، وإظهارهم بأنهم أقليات، أو بدو وغزاة من أهل الصحراء.

الخاتمة:

لا يمكن أن نفهم ذلك الانطباع الذي عبر عنه الرحالة الأجانب في مؤلفاتهم حول مدينة يافا خلال القرن التاسع عشر في فلسطين، إلا من خلال تسليط الضوء على الخلفيات الثقافية والتعليمية للرحالة، والتي لها بعداً مرتبطاً بتجاربهم وميولهم الاجتماعية والدينية والسياسية، ومدى اطلاعهم على الكتب المقدسة (العهدين القديم والجديد)، بما في ذلك توجهات الدول الأجنبية التي يحمل كلاً منهم جنسيتها، وأيضاً الدور والوظيفة التي جاء من أجلها، فبعضهم يحمل صفة رسمية، وبعضهم مرافق مع قريبه الدبلوماسي لأغراض الاستجمام، وبعضهم زائر لأغراض الحج والسياحة.

يسهم اعتماد الرحالة في رحلته على دليل (مرافق، مترجم وربما سايس الخيل أو قواس/ الغفير) في صقل انطباعه العام عن يافا وسائر التجمعات السكانية الفلسطينية وعن المجتمع والبيئة، ولوحظ أنه في حال كان الدليل من الرهبان أو الآباء تختلف هذه الانطباعات، وكذلك تختلف في حال كان الراهب من سكان البلاد الأصلين أو من الرهبان ذو الأصول الإيطالية والإسبانية، وحتى التعصب الديني والمذهبي قد أسهم في تَشكيل هذه تصورات الرحالة حول مشاهداته، وفي الغالب كانت تظهر انطباعات سلبية عن الحياة الاجتماعية في فلسطين برمتها، وليس فقط حول الانطباع عن مدينة يافا، بينما تظهر بعض الجوانب من الموضوعية في كُتُبِ الرحالة وانطباعاتهم في حال كان المرافق من العرب أو الأتراك، وهكذا في حال كان الرحالة قد دخل البلاد مع قريبه الذي يعمل في قنصلية بلاده في فلسطين، لما له مِن خبرة حول تفاصيل المجتمع والبيئة.

لَعبَ الوضع السياسي والفترة التي دخل فيها الرحالة فلسطين دوراً مؤثراً في رسم انطباعاته عن مدينة يافا، سيما في فترات الغزو الخارجي مثل حملة نابليون بونابرت 1798-1801م أو حملة الحاكم المصري إبراهيم باشا 1832م -1840م، وكذلك الحروب الأهلية بين مراكز القوى في فلسطين، وأيضاً في فترات الاستقرار أو تلك التي تخللها إصلاحات أو امتيازات أجنبية، لما لهذه الحروب والتحولات من تأثيرات عدة على الحياة العامة، وتهديم

المدن والأسـوار، وتحويلها إلى أطلال وخرائب، وتلف المزروعات والأشـجار، وانتشـار الفقر والأمراض.

لم يتوقف الأمر إلى هـذا القـدر، بـل تعـداه إلى طريقـة وصـول الرَحـالـة الأجنبي والوسيلة التي استقلها، سواءً عَبَرَ البحر مباشرة، بحيث ينزل من السفينة إلى قاربٍ صغير يُقِلَهُ إلى المرفأ ويدخل المدينة عبر الساحل، لذلك تختلف مشاهداته عن سواه، ممن دخلوا فلسـطين من الشـمال، بعد أن تجولوا في جبل لبنان، وتنقلوا في قرى ومدن الجليل الغربي مروراً بعكا وحيفا وساحلها الجنوبي نوح يافا، أو عن غيرهم ممن دخلوا فلسطين بعد قضاء رحلتهم في مصر، ودخلوها عبر طريق سيناء إلى رفح وخان يونس وغزة، فتختلف مشاهداتهم باختلاف طبيعة الرحلة، وباختلاف البيئة والجغرافيا الفلسطينية التي مروا بها.

حتى أن هذه المشـاهدات ارتبطت بالسـاعة (الوقت) التي وصـل فيها الرحالة إلى يافا أو إلى غيرها منَ المُدُنِ والقرى والتجمعات البدوية، فتختلف الرؤية والمشاهد من وقت لأخر، ففترة الظهيرة تعتبر فترة الذروة والنشاط، وهي ليست مثل سكون الليل أو ساعات الصباح الأولى، فحركة الناس والبيع والشـراء والفِلاحة والنوم والراحة، مرتبطة بهذه الأوقات، ولها انطباعاتها، وكذلك في الليالي المَاطِرة والنهار المُشمِس والأَجواء المُسقرة والصافية، وكذلك في فصـول السـنة من صـيف وخريف وشـتاء وربيع تنعكس على انطباعات الرحالة ومخيالهم الجمالي.

أبرز ما تميزت به يافا وَذَكَرَهُ الرَحالة بشكل مباشر أو غير مباشر، هو التنوع العرقي والديني والمذهبي، والحريات العامة التي تمتع بها الرحالة والزوار والرعايا الأجانب، حتى بعد الحروب والمجازر التي افتعلها نابليون بونابرت وجيشـه الفرنسـي، وكذلك قبل أن تتأسـس القنصليات الأجنبية في فلسطين.

كشـف روايات الرحالة عن الحالة الاقتصـادية ليافا، وخيراتها ومواردها، وأنها يصـعب أن تجوع، لما تمتعت بهِ من اكتفاء ذاتي، حتى في ظل الأوبئة أو الحروب والقلاقل السياسية، كانت تزدهر بأسواقها (البازارات) داخل الأزقة والحارات، وخارج الأسوار.

لم تتوقف حركة يافا التجارية، وعلاقتها الاقتصادية مع العالم الخارجي عبر البحار ولا مع سـائر حواضـر الشـرق في كل الظروف والأحول، وكان يتقاطر لزيارتها الناس من عدة

أعراق وأجناس، يرتدون الأزياء المتنوعة والمختلفة، مما جعلها بمثابة احدى ابرز المُدُنِ المُطلةِ على ساحل المتوسط.

المتنوعة والمختلفة، مما جعلها بمثابة احدى ابرز المُدُنِ المُطلةِ على ساحل المتوسط.

صفحة المصادر

1. ألفونس دي لامارتين، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق 1832م، ترجمة جمال شحيد وماري طوق، الكويت، 2006م.

2. فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس 1803م، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر- بغداد – شارع أبو نواس، ط 1، 2008م.

3. غوسطاف فلوبير، رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج 1850م، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، ط، 2013م.

□. ماري إليزا روجرز، الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م، ترجمة: جمال أبو غيدا، 2012م*

---

[1] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس 1803م، ترجمة مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة والنشر- بغداد، ط 1، 2008م ، ص99 .

[2] نفسه، ص100 .

[3] نفسه، ص112 .

[4] ماري إليزا روجرز، الحياة في بيوت فلسطين، رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م، ترجمة: جمال أبو غيدا، 2012م ، ص13 .

[5] نفسه، ص100 .

[6] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، المرجع السابق، ص100

[7] نفسه، ص100 .

[8] نفسه ، ص101 .

[9] نفسه، ص101 .

[10] ماري إليزا روجرز، المرجع السابق، ص11 .

[11] ألفونس دي لامارتين، مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق 1832م، ترجمة جمال شحيد وماري طوق، الكويت، 2006م، ص288 .

[12] ماري إليزا روجرز، المرجع السابق، ص11 .

[13] نفسه، 12 .

[14] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، المرجع السابق، ص100، ص100 .

[15] ماري إليزا روجرز، المرجع السابق، ص12 .

[16] ألفونس دي لامارتين، المرجع السابق، ص289 .

[17] نفسه، ص289 .

[18] غوسطاف فلوبير، رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج 1850م، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2013م، ص17 .

[19] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، المرجع السابق، ص100، ص101 .

[20] نفسه، ص102 .

[21] نفسه، ص102 .

[22] نفسه، ص103 .

[23] غوسطاف فلوبير، المرجع السابق، ص14 .

[24] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، المرجع السابق، ص100، ص104 .

[25] نفسه، ص104 .

[26] نفسه ، ص106 .

[27] نفسه، ص106 .

[28] نفسه، ص121-124 .

[29] ماري إليزا روجرز، المرجع السابق، ص11 .

[30] نفسه، ص12 .

[31] نفسه، ص14 .

[32] نفسه، ص14 .

[33] نفسه، ص12-14 .

[34] نفسه، ص15 .

[35] نفسه، ص16-17 .

[36] نفسه، ص16-17 .

[37] نفسه، ص16-17 .

[38] نفسه، ص 17 .

[39] نفسه، ص18 – 19 .

[40] نفسه، ص19 .

[41] ألفونس دي لامارتين، المرجع السابق، ص288 .

[42] غوسطاف فلوبير، المرجع السابق، ص17 - 18

[43] نفسه، ص18 .

[44] فرانسوا رونيه دوشاتوبريان، المرجع السابق، ص113 .

[45] نفسه، ص113 .

[46] نفسه، ص114 .

[47] نفسه، ص114 .

[48] ماري إليزا روجرز، المرجع السابق ، ص22 .

[49] نفسه، ص22 .

[50] نفسه، ص22 – 23 .

[51] نفسه، ص23 .

[52] نفسه، ص23 .

[53] نفسه، ص24 .

[54] غوسطاف فلوبير، المرجع السابق، ص18 – 19 .

[55] نفسه، ص10، 52، 61، 65، 66، 71، 73 .

[56] ألفونس دي لامارتين، المرجع السابق، ص290 .